لعل هذا الإيجاز لوقائع المهرجان، يظهر أن أنشطته لم تكن قليلة.

يضاف إلى هذا أن لجنة التحكيم التي تمثلت فيها سوريا بشخص واحد، رأسها المخرج السوفياتي الشهير ازيروف، وضمت، إلى جانبه، الكوبي «الفاريس»، أحد أهم مخرجي الأفلام الوثائقية؛ وذلك إلى جانب سينمائيين من مصر والجزائر وتونس. وقد عملت اللجنة بنشاط في ظل تحضيرات لم تكن كلها ملائمة.

كل هذا النشاط، أضفى على المهرجان هذا اللون من الحيوية الذي يرافق المهرجانات السينمائية في العادة، وأطلق العنان لسلسلة دافقة من المناقشات داخل اجتماعات لجنة التحكيم، وفي الندوات وخارجها. وأسهمت وسائل الإعلام السورية في إشراك الرأي العام بالاهتمام بالمهرجان، فخصصت الصحف والمجلات السورية صفحاتها الثقافية لشؤون المهرجان، وفعلت الإذاعة، وكذلك فعل التلفزيون السوري، شيئاً مماثلاً، بالإضافة إلى الزوايا والبرامج الخاصة التي رافقت أيام المهرجان العشرة.

غير أن هذا كله، على إيجابيته وحيويته، لم يحل دون بروز سلسلة من الملاحظات السلبية، التي جعلت من المشروع طرحَ السؤال الذي بدأنا به.

فالإعداد للمهرجان، بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلتها لجنته التنظيمية، ورئيستها وزيرة الثقافة السورية، الدكتورة نجاح العطار، حمل كثيراً من أمراض الارتباك والفوضى. حتى ان أيام المهرجان الأولى انقضت دون أن يعرف المشتركون فيه، معرفة يقينية، القائمة النهائية لأفلام المسابقة، وهناك أفلام وصلت إلى دمشق بعد بدء المهرجان، وأخرى كانت منتظرة ولم تصل بالمرة.

والندوات التي كان من المأمول أن تتوج أنشطة المهرجان، وأن تبلور أوضح وأهم اتجاهات الحركات السينمائية في البلدان المشاركة، أديرت على نحو انطلق في الغالب من الرغبة في مجاملة الوفود المستضافة وتجنب إثارة حساسياتها. والأهم من هذا أن الوقت المتاح للندوات لم ينفسح بحيث يكفي للمناقشات الحارة والمستفيضة التي يحتاجها البحث في التجارب والهموم المتعددة موضع العناية المشتركة؛ فما من ندوة استغرقت أكثر من ساعتين. وينطبق هذا أيضاً على الندوة العامة التي كان موضوعها السينما والجمهور، وعلى ندوة نقابة الفنانين. ثم ان جميع الندوات جرت بغير تحضير مسبق، باستثناء ندوة النقابة التي أدارها السينمائي السوري صلاح دهني، مستهلاً إياها بورقة عمل مسبقة ضمنها خبرته الطويلة في الميدان الذي تتناوله الندوة: وهو القطاع العام والسينما. ولولا هذه الورقة، التي أدت إلى صبّ النقاش في أقنية الموضوع، لما زادت الندوة عن كونها لقاء مجاملة تعده نقابة الفنانين السوريين لضيوف المهرجان.

وعلى الرغم من هذه النواقص، كان المهرجان مناسبة تستحق الجهد الذي بذل من أجلها والمال «القليل» الذي صرف عليه. وقد كان كذلك خصوصاً بالنسبة للسينمائيين العرب الشبان (الشيوخ غابوا) الذين يتلمسون طريقهم بجدية كاملة نحو سينما جادة تتجاوز أطر وطروحات السينما العربية التي كرسها الانتاج التجاري المصري، أو المقلد له، على مدى عشرات السنين.

وقد كان من شأن أفلام من نوع: «لحن عن تشيلي» و «الباقون الأحياء» الكوبيَّين، و: «بقايا صور» و «التقرير» و «حادثة النصف متر» السورية، و «عزيزة» التونسي، و «أنباء الريح» الجزائري، أن تفتح العيون بأمثلة عملية على مصداقية السينما التقدمية ومشروعيتها في البلدان النامية، وعلى إمكانية تحقيق إنجازات كبيرة، أو معقولة، في ميدانها، على الرغم من الشكوى من ضعف الامكانيات المتاحة وقصورها، ومن ضيق هوامش حرية التعبير.

كذلك، كان من شأن مناقشات الندوات أن تضع اليد على الهموم المشتركة لسينمائيي البلدان النامية، وأن تظهر العلل التي تعترض سبيل تطور السينما التقدمية وأن تشير إلى وسائل تجاوزها. وعلى الرغم من قصر الوقت المتاح للندوات، ظل من الممكن التعرف على آراء سديدة وعميقة ساهمت في بلورة